الفصل الثلاثون

عصر رينولدز

١٧٥٦ — ٩٠

١ — الموسيقيون

أولعت انجلتره بالموسيقى الرائعة ، ولكنها عجزت عن إنجابها .

لقد تكاثر تذوقها . فى اللوحة التى رسمها زوفانى « أسرتا كوبر وجورج » نرى الدور الذى لعبته الموسيقى فى البيوت الراقية . ونسمع عن مئات المغنين والعازفين الذين جمعوا معاً لحفلة تخليد ذكرى هندل فى ١٧٨٤ . وقد أعلنت « المورننج كرونكل » فى عدد ٣٠ ديسمبر ١٧٩٠ اعلاناً للشهور التالية عن سلسلة من « حفلات موسيقية يؤديها المحترفون » ، وسلسلة أخرى من « حفلات للموسيقى القديمة » ، و « حفلات موسيقية للسيدات المتبرعات » فى أمسيات الآحاد ، وعن أوراتوريوات مرتين فى الأسبوع ، وست حفلات حفلات للموسيقى السمفونية يقودها المؤلف بشخصه — جوزف هايدن[1] . وهذا ينافس ثروة لندن الموسيقية اليوم . وكما أن البندقية ألفت من اليتامى فرقاً للإنشاد ، فكذلك كان « أطفال المبرة » فى كتدرائية القديس بولس يحيون حفلات موسيقية سنوية كتب هايدن عنها يقول :

« لم تؤثر فى أى موسيقى أخرى فى حياتى هذا التأثير الشديد »[2] ، وكانت الحفلات الموسيقية والأوبرات الخفيفة تقدم فى قاعة رانيلاج وفى حدائق ما ريلبون . وقدمت اثنتا عشرة جمعية من هواة الموسيقيين حفلات عامة . وذاع حب الانجليز للموسيقى ذيوعاً اجتذب الكثير من العازفين

والمؤلفين إلى الجزيرة — جيمنيانى ، وموتسارت ، وهايدن ، ويوهان كرستيان باخ ؛ ومكث فيها باخ ولم يرحل عنها .

وفتر الميل إلى الأوبرا الجادة فى انجلتره بعد أن أتخمها هندل . ثم عاد شىء من التحمس لها حين استهل جوفانى مانتزولى موسم ١٧٦٤ بأوبرا « اتسيو » ، وقد وصف برنى صوته بأنه « أقوى وأضخم سوبرانو سمع على مسرحنا منذ فاريناللى»(٣) وكان هذا على ما يبدو آخر انتصار للأوبرا الإيطالية فى انجلتره فى ذلك القرن . فلما احترقت دار الأوبرا الإيطالية فى لندن (١٧٨٩) اغتبط هوراس ولبول وتمنى ألا يعاد بناؤها أبدا (٤) .

وإذا كان العهد قد خلا من المؤلفين الموسيقيين الجديرين بالذكر فإنه أنجب مؤرخين موسيقيين بارزين صدرت أعمالهما فى ذات السنة (١٧٧٦) « سنة العجائب » التى ظهر فيها كتاب « اضمحلال وسقوط الدولة الرومانية » و « ثروة الأمم » . فضلا عن الإعلان الأمريكى للاستقلال . فكتاب السر جون هوكنز ذو الأجزاء الخمسة « التاريخ العام لعلم الموسيقى وممارسته » عمل ينبىء عن دراسة مدققة . ومع أنه هو نفسه لم يكن موسيقياً (إذ كان محامياً عاماً ثم قاضياً) فإن معاييره ثبتت وسط تقلبات الرأى الناقد . أما المؤرخ الثانى « تشارلز برنى » فكان عازف أرغن فى كتدرائية القديس بولس وأكثر معلمى الموسيقى زبائن فى انجلتره . وقد أكسبته طلعته الوسمية وشخصيته المحبوبة فضلا عن ثقافته المتعددة صداقة جونسن وجاريك وبيرك وشريدان وجبون ورينولدز — الذى رسم له لوحة جذابة دون أن يتقاضى عنها أجراً(٥) . وقد جاب أرجاء فرنسا وألمانيا والنمسا وإيطاليا ليجمع المواد لكتابه « التاريخ العام للموسيقى » . وتكلم كلام خبير على المؤلفين الموسيقيين الذين كانوا يومها على قيد الحياة . وحوالى ١٧٨٠ قال ان « شيوخ الموسيقيين يشكون من غلو شبابهم ، وشبابهم يشكو من جفاف الشيوخ وخشونتهم »(٦) .

٢ — المعماريون

اشتبك البناءون الانجليز الآن فى منافسة ساخنة بين الإحياء القوطى والإحياء

الكلاسيكى . ذلك أن بهاء الكتدرائيات القديمة ، وفخامة الزجاج الملون الآثارية ، والأطلال المكسوة باللبلاب والمتخلفة من أديرة العصر الوسيط فى بريطانيا ، كل أولئك حفز الخيال ليصور العصور الوسطى فى صورة الكمال ، وتوافق مع الانتقاض الرومانتيكى المتزايد على طراز الثنائيات الكلاسيكية ، والأعمدة الجامدة ، والقواصر الثقيلة . فاستخدم هوراس ولبول سلسلة من معمارى المرتبة الثانية ليعيدوا بناء بيته « ستروبرى هل » فى توبكنام بطراز وحلية قوطيين (١٧٤٨ — ٧٣) ، وأنفق أعواماً من الاهتمام البالغ ليجعل من بيته الحفيظ على الطراز المضاد للطراز البلاديوى . وكان يضيف إليه الحجرات عاماً بعد عام حتى اكتمل له منها اثنتان وعشرون وبلغ طول إحداها — وهى « قاعة الفنون » التى ضمت مجموعات تحفه — خمساً وستين قدماً . وغلب عليه استعمال الشرائح الخشبية المكسوة بالجص بدلا من الحجر . ويتضح لنا — حتى من أول نظرة — ما هذا الطراز من هشاشة قد تغتفر فى الحلية الداخلية ولكنها لا تغتفر فى البناء الخارجى . وقد وصف سلوين قصر ستروبرى هل هذا بأنه « قوطى هش مثل كعكة الزنجبيل »[٧] ، وقدر ظريف آخر أن ولبول عمر بعد تهدم ثلاثة مجموعات من الأسوار المفرجة التى[٨] اقتضى الأمر ترميمها المرة بعد المرة .

على أن بلاديو وفتروفيوس ظلا رغم هذه التجارب الربين الحارسين للعمارة الانجليزية فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر كما كانا فى نصفه الأول . وقد تدعمت الروح الكلاسيكية بفضل الحفائر التى أجريت فى هركولانيوم وبومبى ، وذاعت بفضل الأوصاف المنشورة عن الأطلال الكلاسيكية التى عثر عليها فى أثينا وتدمر وبعليك . ودافع السر وليم تشيمبرز عن الرأى البلاديوى فى كتابه « بحث فى العمارة المدنية » (١٧٥٩) وعزز النظرية بالتطبيق حين أعاد تشييد « سومرست هاوس » (١٧٧٦ — ٨٦) بواجهة عريضة فيها النوافذ بطراز النهضة والأروقة الكورنثية المعمدة .

ثم وفدت من اسكتلنده أسرة لامعة من اخوة أربعة هم جاك وروبرت وجيمس ووليم آدم ليهيمنوا على العمارة الانجليزية فى نصف القرن الذى نحن بصدده . وقد ترك روبرت أقوى البصمات على جيله . فقد أنهى دراسته

فى جامعة إدنبره ، ثم أنفق ثلاث سنين فى إيطاليا حيث التقى ببرانيزى وفنكلمان . وقد لاحظ أن القصور الخاصة التى امتدحها فتروفيوس قد اختفت من روما ، وانتهى إليه أن واحداً منها مازال سليماً نسبياً ، وهو قصر دقلديانوس فى سبالاتو (وهى الآن سبليت فى يوغوسلافيا) فاتخذ سمته إلى تلك العاصمة الدلماشية العتيقة ، وأنفق خمسة أسابيع يقيس ويرسم ، ثم ألقت السلطات القبض عليه ظناً منها أنه جاسوس ، ثم أفرج عنه ، وألف كتاباً عن أبحاثه ، وقفل إلى انجلتره وقد عقد العزم على استعمال الطرز الرومانية فى العمارة البريطانية . ففى ١٧٦٨ استأجر هو وأخوته مساحة من الأرض المنحدرة بين السترانند والتمز لتسعة وتسعين عاماً ، وشيدوا فوقها « أدلفى تراس » الشهير — وهو حى من شوارع بديعة وبيوت جميلة فوق جسر تدعمه البواكى والعقود الرومانية الضخمة ؛ هنا عاش بعض الدراميين الكبار ، من جاريك إلى برنارد شو . كذلك صمم روبرت بعض القصور المشهورة ، مثل قصر « بيوت » المسمى لوتن هو (أى بيت لوتن ، على ثلاثين ميلا شمالى لندن) . قال جونسن « هذا أحد الأماكن التى لا أندم على أننى جئت لأشهدها[٩] » ، ومعروف أنه كان رجلا عسير الإرضاء .

وقد انتصرت الطرز الكلاسيكية بوجه عام على الأحياء القوطى ، وشيد كثير من قصور هذا العهد الكبرى ، مثل كارلتن هاوس بلندن ، وهيروود هاوس بيوركشير ، بالطراز الكلاسيكى الحديث . ولم يعمر ولبول ليشهد عودة الطراز القوطى مكللا بالنصر والبهاء فى دارى البرلمان (١٨٤٠ — ٦٠) .

٣ — ودجوود

لم يقنع الأخوة آدم بتصميم المبانى وما احتوته فى داخلها ، بل صنعوا بعضاً من أجمل أثاث العصر . غير أن ألمع الأسماء فى هذا المضمار هو اسم توماس تشبنديل ، الذى نشر فى ١٧٥٤ وهو فى السادسة والثلاثين كتاب « مرشد الجنتلمان ونجار الأثاث » ، الذى كان لفن صناعة الأثاث ما كانه

كتاب رينولدز « أحاديث » لفن التصوير . وكانت المنتجات التى تفرد بها هى المقاعد ذات « الظهور الشريطية » الرقيقة والقوائم الجذابة . ولكنه أبهج النبلاء والنبيلات فى عهد جورج الثالث كذلك بالخزائن ، والمكاتب ، والمناضد ، ودواليب الكتب ، والمرايا ، والموائد ، والأسرة ذات الأعمدة الأربعة — وكلها أنيق ، وأكثرها مبتكر ، هش رقيق عموماً .

وظلت هذه الرقة طابع فن منافسه جورج هبلوايت ، وخلفهما توماس شيراتون . وبدا أنهم اعتنقوا نظرية بيرك التى زعمت أن الجمال يجب أن يكون هشاً رقيقاً ، فى الفن كما هو فى الحياة . أما شيراتون فقد دفع الخفة والرشاقة إلى الذروة ، وتخصص فى الخشب الملون وغيره من المنتجات البديعة التجزع . وكان يصقلها فى أناة ، ويلونها فى رقة ، ويكفتها أحياناً بزخارف معدنية . وقد أورد فى « قاموس الأثاث » (١٨٠٢) قائمة حوت ٢٥٢ من « كبار صناع الأثاث » يشتغلون فى لندن أوقربها . ونافست الطبقات العليا فى انجلتره الآن نظائرها الفرنسية فى صقل أثاثها وتجهيزاتها الداخلية .

وكانوا أسبق من الفرنسيين فى تصميم الحدائق والبساتين . وقد لقب لانسلوت براون « Capability » (أى القدرة) لأنه كان يفطن بسرعة كبيرة للقدرات التى تتيحها أرض زبونه للتصميمات الغريبة — والغالية ؛ وبهذه الروح صمم الحدائق فى بلنهيم وكيو . واتجهت موضة الحدائق الآن إلى الطراز الدخيل ، أو غير المتوقع ، أو البهى المنظر . واستعملت نماذج مصغرة من الهياكل القوطية والباجودات الصينية زخارف خارجية ؛ وأدخل السروليم تشيمبرز فى زخرفة حدائق كيو (١٧٥٧ — ٦٢) الهياكل القوطية ، والجوامع المغربية ، والباجودات الصينية (المتعددة الأدوار) . وكانت الجرار الجنائزية حليات محببة للحدائق ، تضم أحياناً رفات أصدقاء رحلوا عن هذه الدنيا .

أما فنون الخزف فقد تطورت تطوراً كاد يكون ثورياً . فكانت انجلتره تنتج زجاجاً لا يقل جمالا عن أى زجاج مصنوع فى أوربا[١٠] . وكانت مصانع الخزف فى تشلسى وداربى تصنع الأشكال المبهجة بالبرسلان ، بطراز سيفر عادة . ولكن أنشطة مراكز الخزف كانت « المدن الخمس »

فى ستافورد شير — لا سيما بير سليم وستوك — أن — ترنت . وقبل مجىء جوسيا ودجوود كانت هذه البضاعة فقيرة فى طرائقها ومكاسبها ؛ وكان الخزافون اجلافاً جهلة ، قذفوا وسلى بالوحل حين وعظهم أول مرة ، وكانت بيوتهم عششاً وسوقهم تسدها طرقات لا سبيل إلى اختراقها . وفى ١٧٥٥ اكتشفت فى كورنوول رواسب غنية من الكاولين — وهو طفل أبيض قاس كالذى يستعمله الصينيون ؛ ولكن الموقع كان يبعد مائتى ميل عن المدن الخمس .

وقد بدأ ودجوود وهو فى التاسعة من عمره (١٧٣٩) العمل على دولاب الخزاف . ولم يتلق من التعليم إلا القليل ، ولكنه قرأ كثيراً . وألهمته دراسته لكتاب « كايلوس » « مختارات من الآثار المصرية والأترورية واليونانية والرومانية والغالية » (١٧٥٢ — ٦٧) الطموح إلى تقليد الأشكال الخزفية الكلاسيكية ومنافستها . وفى ١٧٥٣ بدأ العمل بمصنعه الخاص فى « أينى هاوس » ، وبنى حوله قرب بير سليم مدينة أطلق عليها اسم إترويا . وبهمة المحارب وبصيرة رجل الدولة شن حرباً على الظروف التى عوقت هذه الصناعة . ورتب وسيلة أفضل لنقل الكاولين من كورنوول إلى مصانعه ، وشن حملة لإصلاح الطرق وشق القنوات ، وأسهم فى دفع نفقاتها ، وصحت نيته على أن يفتح مسالك من المدن الخمس إلى العالم . وكانت سوق الخزف الجميل الانجليزية حتى ذلك العهد يسيطر عليها خزف ما يسن وديلفت وسيفر ، فاستولى ودجوود على السوق المحلية ، ثم على جانب كبير من السوق الأجنبية ، وما وافى عام ١٧٦٣ حتى كانت مصانع خزفه تصدر كل عام ٥٥٠,٠٠٠ قطعة لأوربا وأمريكا الشمالية . وأوصت كاترين الكبرى على طقم للمائدة من ألف قطعة .

وبحلول عام ١٧٨٥ كانت مصانع خزف ستافورد شير تشغل ١٥,٠٠٠ عامل . وأدخل ودجوود تخصص العمل ، وأرسى الانضباط فى المصنع ، ودفع أجوراً حسنة ، وبنى المدارس والمكتبات . وكان يصر على جودة الصناعة ، وقد وصفه كاتب ترجم له قديماً بأنه كان يدب فى أرجاء ورشته عه ساقه الخشبية ، ويحطم بيده كل إناء يظهر به أى عيب صغير ؛ وفى مثل هذه الحالات كان يكتب بالطباشير عادة على مقعد الصانع المهمل هذا

التحذير « هذا لايرضى جوسيا ودجوود »[١١] وابتكر العدد الدقيقة ، وجلب الآلات البخارية لتحريك مكناته . ونتيجة لإنتاجه الواسع للخزف التجارى ، بطل الاستعمال العام لمعدن البيوتر فى انجلتره . وتفاوت إنتاجه بين مواسير الفخار لمجارى لندن ، وأبدع وأدق الأوانى للملكة شارلوت ، وكان يقسم أوانيه المعروضة للبيع إلى « النافع » و « الزخرفى » ولصنع الخزف الزخرفى كان يقلد النماذج الكلاسيكية فى غير مواربة ، كما يرى فى فازاته العقيقية الفاخرة ، ولكنه طور أيضاً أشكالا من بنات أفكاره ، خصوصاً خزف البشب الشهير ذا الأشكال الإغريقية المنقوشة نقشاً رقيقاً باللون الأبيض على أرضية زرقاء .

وقد جاوز اهتمامه وحماسته الخزف بكثير . فهدته تجاربه التى أجراها للعثور على أخلاط من التراب والكيماويات أكثر إرضاء له ، وعلى طرائق أفضل للحريق ، إلى اختراع « البيرومتر » لقياس درجات الحرارة المرتفعة . وإتاح له هذا الاختراع وغيره من البحوث عضوية الجمعية الملكية (١٧٨٣) وكان عضواً سباقاً فى جمعية إلغاء الرق ، وقد صمم ختمها وصنعه . وقام بحملة لتعميم حق التصويت للذكور وللإصلاح البرلمانى ، وناصر المستعمرات الأمريكية من بداية ثورتها إلى نهايتها . ورحب بالثورة الفرنسية بشيراً بفرنسا أسعد حالا وأعظم رخاء .

وقد هدته فطنته إلى تكليف جون فلاكسمان بعمل الرسوم الجديدة المهذبة لخزفه ومن هذه المهمة انتقل فلاكسمان إلى توضيح أعمال هومر وأسخيلوس ودانتى برسوم قائمة على أساس من فن رسامى الفازات اليونان . وهى رائعة فى خطوطها ، ولكنها لافتقارها إلى الجسم واللون لاتزيد فى جاذبيتها عن جاذبية المرأة مجردة من اللحم . وانتقل بعض هذا البرود إلى تماثيل فلاكسمان ، كما نرى فى تمثاله لنلسن فى كتدرائية القديس بولس ، ولكنه فى تمثال « كيوبيد وما ربيسا »[١٢] الرخامى حقق أشكالا فايضة بالحياة فى عمل من أفضل تقليدات التماثيل الكلاسيكية . ثم أصبحت التماثيل الجنائزية

مجال تخصصه ، فأقامها لتشاترتن فى برستل ، ولرينولدز فى كتدرائية القديس بولس ، ولباولى فى كنيسة وستمنستر . وقام فى انجلتره بالدور الذى قام به كانوفا فى إيطاليا — وهو المحاولة الكلاسيكية الحديثة لالتقاط رشاقة براكستيليس الناعمة الشهوانية من جديد .

وهناك جمال أقل ، وحياة أكثر ، فى التماثيل النصفية التى نحتها جوزف نولكنز لأعلام الإنجليز . وقد ولد فى لندن لأبوين فلمنكيين ، ودرس فيها حتى بلغ الثالثة والعشرين ، ثم قصد روما ، حيث عاش واشتغل عشر سنين يبيع العاديات الأصلية والمزيفة(١٣) . فلما عاد إلى انجلتره ، نحت تمثالا نصفياً لجورج الثالث وفق فيه توفيقاً لم يلبث أن كثر الطلب عليه . فجلس إليه ستيرن وجاريك وفوكس وبت الثانى ، كذلك جلس إليه جونسن ، وكان فى ذلك ما أسفوا عليه أحياناً ، لأن نولكنز لم يجامل أحداً فى نحت تمثاله . وقد سخط جونسن قائلا ان المثال أظهره وكأنه تعاطى مسهلا(١٤) .

كان العصر عصر حفارين شعبيين ، وكان الجمهور شديد الاهتمام بالشخصيات القوية التى وطئت مسرح السياسة وغيره من المسارح ، وقد نثرت فى طول انجلتره وعرضها نسخ مطبوعة من صور أشكالهم ووجوههم وكادت رسوم جيمس جلرى الكاريكاتورية تبلغ فى أذاها مبلغ رسائل جونيوس ؛ وقد اعترف فوكس بأن هذه الرسوم أنزلت به « أذى أكثر من المناقشات فى البرلمان »(١٥) . وصور توماس رولاندسن الرجال وحوشاً ، ولكنه رسم أيضاً مناظر طبيعية مبهجة ، وأضحك أجيالا عديدة بكتابه « سياحات الدكتور سنتاكس » . أما بول ساندبای وإدموند داير فقد طورا الرسم بالألوان المائية حتى كاد يبلغ القمة فى الصقل .

وكان البريطانيون العائدون من سياحتهم الكبرى (فى أوربا) يجلبون معهم نسخ الرسوم المطبوعة والمحفورات والصور الزيتية وغيرها وغيرها من التحف ، وانتشر تذوق الفن ، وتكاثر الفنانون ، ورفعوا هاماتهم ، وأجورهم ، ومكانتهم فى المجتمع ، وأنعم على بعضهم بلقب الفروسية . ومنحت جمعية تشجيع الفن والصناعة والتجارة (١٧٥٤) المبالغ الطيبة

جوائزة للفنانين الوطنيين ، ونظمت المعارض . وعرض المتحف البريطانى مجموعاته فى ١٧٥٩ . وفى ١٧٦١ أفتتحت جمعية قائمة بذاتها للفنون معارض سنوية . وما لبثت أن انقسمت إلى محافظين ومجددين . فألف المحافظون أكاديمية لندن الملكية بمرسوم و ٥,٠٠٠ جنيه من جورج الثالث . وجعلوا جوشوا رينولدز رئيساً لها ثلاثة وعشرين عاماً . وهكذا بدأ العصر العظيم للتصوير الانجليزى .

٤ — جوشوا رينولدز

وكان قائد المسيرة هورتشرد ولسن ، الذى ولد لقسيس ويلزى ؛ وقدم إلى لندن فى الخامسة عشرة من عمره ، وكسب قوته برسم الأشخاص . وفى ١٧٤٩ قصد إيطاليا ، وفيها وفى فرنسا استوعب تراث نيقولا بوسان وكلود لوران ، وتعلم أن يؤثر تصوير الأحداث التاريخية والمناظر الطبيعية على تصوير الأشخاص . فلما عاد إلى انجلتره رسم مناظر طبيعية مشرقة الجو ولكنها مكدسة بالأرباب والربات وغيرها من الأطلال الكلاسيكية . وتميزت بالجمال صورة « نهر التمز فى تويكنام »(١٦) التى تلتقط روح نهار صيف انجليزى — المستحمون يسترخون ، والأشجار والزوارق الشراعية لايكاد يحركها النسيم المترقرق . غير أن الانجليز لم يقبلوا على شراء صور المناظر الطبيعية ؛ فقد أرادوا لوحات تخلد وجوههم فى عنفوانهم . ولكن ولسن أصر على رأيه ، وعاش فقيراً فى حجرة نصف مؤثثة فى توتنام كورت رود ، وخفف مرارته بالشراب . وفى ١٧٧٦ أنقذته الأكاديمية الملكية إذ عينته أميناً لمكتبتها . وخلف له موت أخ له ثروة صغيرة فى ويلز ، فأنفق سنيه الأخيرة هناك مغموراً حتى لقد أغفلت الصحف كلها نبأ موته (١٧٨٢).

وعلى النقيض من هذا كانت حياة رينولدز فى فنه مهرجاناً موصولا من أسباب التشريف والثراء . فقد أسعده الحظ بمولده (١٧٢٣) لقسيس ديفونشيرى يدير مدرسة لاتينية ويعشق الكتب التى عثر بينها على « مقال فى فن فنون التصوير» (١٧١٩) من تأليف جوناثان رتشردسن . وقد ألهبه الكتاب رغبة فى أن يكون مصوراً ووافقه أبواه العطوفان على اختياره ارضاء

له ، فأوفداه إلى لندن ليتتلمذ على توماس هدسن ، وهو رجل ديفونى تزوج بابنة رتشردسن وكان يومها أروج مصور للأشخاص فى انجلتره . وفى ١٧٤٦ مات أبوه ، وأقام الفنان الشاب مع أختيه فى بلدة هى اليوم بليمث . فى ذلك الثغر الشهير التقى بالملاحين وضباط البحرية وصورهم وكون صداقات غالية . فلما كلف الكبتن أوجستس كيبل بحمل الهدايا إلى داى الجزائر ، عرض على جوشوا أن ينقله مجاناً إلى مينورقة ، لأنه علم أن الشاب يتوق للدرس فى إيطاليا . ومن مينورقة شق رينولدز طريقه إلى روما (١٧٥٠) .

وأقام بإيطاليا ثلاث سنين يرسم وينسخ الصور . وجهد ليكتشف الطرق التى استعملها ميكلانجو ورفائيل فى حذقهما للخط واللون والضوء والظل والنسيج والعمق والتعبير والمزاج . وقد دفع الثمن . فبينما كان ينسخ رفائيل فى بعض حجرات الفاتيكان غير المدفأة أصيب ببرد وأنه أضر بأذنه الداخلية . ثم انتقل إلى البندقية . حيث درس تتسيانو ، وتنتوريتو ، وفيرونيزى ، وتعلم كيف يضفى وقار الأذواج البنادقة على أى إنسان يصوره . وفى طريق عودته إلى وطنه توقف شهراً فى باريس ، ولكنه وجد فى فن التصوير الفرنسى المعاصر من الأنوثة ما لا يسيغه ذوقه . وبعد أن قضى شهراً فى ديفون استقر به المقام مع أخته فرانسيس فى لندن (١٧٥٣) ، وهناك أقام ما بقى من عمره .

وللتو تقريباً استرعى الأنظار بصورة أخرى للكبتن كبيل[١٧] — وسيماً متحمساً . آمراً ناهياً ؛ هنا أعيد التقليد الفانديكى حتى تصبح اللوحات صوراً متألقة للارسقراطية . ولم يمض عامان حتى بلغ عدد زبائنه ١٢٠ زبوناً . واعترف به القوم أبرع مصور فى انجلتره . وكان عيبه التيسير . فقد أصبح شديد الاستغراق والخبرة بتصوير الأشخاص حتى افتقد الوقت والمهارة لرسم الصور التاريخية أو الأسطورية أو الدينية . وقد أجاد رسم بعضها ، مثل « الأسرة المقدسة » و « رباب الحسن الثلاث »[١٨] ولكن الهامة لم يكن فيها . كذلك لم يكن بزبائنه حاجة إلى هذه الصور ، فقد كانوا كلهم تقريباً بروتستنتا يستنكرون الصور الدينية لأنها تشجع عبادة الأوثان فيما يزعمون ؛ وقد أحبوا الطبيعة ، ولكنهم أحبوها ذيلا تلحق به أشخاصهم

أو رحلات صيدهم ، وكانوا يتمنون أن يروا أنفسهم دائمى الشباب على جدرانهم ، مخلفين انطباعاً قوياً على ذراريهم . ومن ثم أقبلوا على رينولدز ، ألفان منهم عدداً ، وأرسلوا إليه أزواجهم وأبناءهم ، وأحياناً كلابهم . ولم ينصرف أحد من هؤلاء حزيناً ، لأن خيال رينولدز اللطيف استطاع دائماً أن يعوضهم عما حرمتهم الطبيعة .

ولم يحدث على مدى التاريخ أن حفظ جيل أو طبقة حفظاً كاملا كذلك الذى تراه فى لوحات رينولدز الباقية وعددها ٦٣٠ « فهنا رجال الدولة الذين عاشوا فى ذلك العصر المفعم حيوية : هنا بيوت فى مهرجان من اللون[١٩] ، وبيرك فى اكتئاب عاجله وهو بعد فى الثامنة والثلاثين ، وفوكس مستكرشاً ، حزيناً ، هماماً فى الرابعة والأربعين . . . وهنا الكتاب : ولبول ، وستيرن ، وجولد سمث[٢٠] وهو يبدو حقيقة مثل « بل المسكين» ، وجبون بوجنتيه الممتلئتين اللتين حسبتهما المركيزة دودفان — التى لم تبصر إلا بيديها — مقعدة طفل »[٢١] وبوزويل [٢٢] فخوراً كأنه خلق جونسن ، ثم جونسن نفسه ، مصوراً فى حب خمس مرات ، وجالساً فى ١٧٧٢ إلى رينولدز ليرسم له أشهر ما رسم من صور الرجال [٢٣] . وهنا أعلام المسرح : جاريك « نهبا بين ربتى التراجيديا والكوميديا المتنافستين» ، ومارى روبنسن فى دور بردیتا ، والسيدة آبنتن فى دور ربة الكوميديا ، وساره سيدونز فى دور ربة التراجيديا[٢٤] ، وقد نقد أحد المتحمسين رينولدز سبعمائة جنيه (١٨،٢٠٠ دولار ؟) ثمناً لهذه الرائعة الفاخرة .

ويغلب على هذا المتحف الذى لاضريب له كثرة عدد النبلاء — أولئك الذين أعطوا نظاماً اجتماعياً لشعب نزاع إلى الفردية ، واستراتيجية ظافرة للسياسة الخارجية ، ودستوراً مقيداً للملك فانظر إليهم أول الأمر فى صباهم الحلو . كصورة توماس لستر ذى الاثنى عشر ربيعاً — هذه الصورة التى رسمها رينولدز واسمها « الصبى الأسمر » تتحدى صورة « الصبى الأزرق » التى رسمها جينزبرو . ثم ورمت خصور الكثيرين منهم بعد أن ولت أيام الشباب الخطرة ، مثل أوجسطس كبيل ذاته الذى كان رائع السمت وهو كبتن فى ١٧٥٣ ، ولكنه انتفخ كثيراً وهو أميرال فى ١٧٨٠ . وقد وفق

رينولدز برغم هذه البدانات ، وبرغم الحرير والمخرمات التى اكتسوا بها ، فى تحويل الشجاعة والكبرياء غير الملموستين إلى لون وخط . خذ مثلا جسم اللورد هينفيلد المتين وشخصيته القوية ، يبدو جسوراً فى اللون الأحمر البريطانى ، ممسكاً بالمفتاح إلى جبل طارق الذى دافع عنه دفاعاً مستميتاً ضد حصار الأسبان والفرنسيين الذى امتد أربعة أعوام .

وهكذا تنتهى بنا المسيرة إلى أولئك الربات بين النساء « الديای جينايكون» اللائى وجدهن رينولدز فى زوجات النبلاء البريطانيين وبناتهم . وإذ كان عزباً فقد كان حراً فى أن يجبهن جميعاً بعينيه وفرشاته ، ويقوم اعوجاج أنوفهن ، ويهذب قسماتهن ، ويرتب شعورهن الهائشة ، ويخلع عليهن بهاء وجلالا بلباس فضفاض رقيق فى خفة الزغب ، خليق بأن يجعل فينوس تواقة إلى كساء عريها . فانظر إلى الليدى اليزابث كبيل ، مركيزة تافيستوك ، وقد ارتدت ثياب القصور التى لبستها قبل سنين يوم كانت إشبينة للعروس الملكة شارلوت ، ترى ماذا تكون بغير تلك الطيات من الحرير الملون تطوق ساقين لا يمكن على أية حال أن تختلفا كثيراً عن ساقى زانتيب (زوجة سقراط) ؛ وكان رينولدز أحياناً يجرب ما تستطيع فرشاته أن تصنع بالمرأة وهى فى ثياب بسيطة ؛ فصور مارى بروس دوقة رتشموند فى عباءة عادية تخيط رسماً فى وسادة[٢٥] ؛ هذا وجه يمكن أن يلم بأحلام فيلسوف . وفى ما يقرب من هذه البساطة فى الملبس والصورة الجانبية الملائكية نرى السيدة بوفرى تصغى إلى السيدة كريوى[٢٦] . وكان هناك جمال أعمق حتى من هذا فى وجه إيما جلبرت ، كونتيسة مونت ادجكوم ، الهادىء الرقيق [٢٧] ، وقد دمرت هذه اللوحة الجميلة بفعل غارات العدو فى الحرب العالمية الثانية .

وكان لكل هؤلاء النسوة تقريباً أطفال ، لأنه كان جزءاً من التزام الارستقراطية الاحتفاظ بالأسرة والملكية فى استمرار لاتنفصم عراه . وهكذا صور رينولدز الليدى اليزابث سبنسر ، كونتسيه بمبروك ، مع ابنها ذى السنين الست ، وهو الذى سيصبح فيما بعد اللورد هربرت[٢٨] ؛ وصور السيدة إدورد بوفرى مع ابنتها جورجيانا ذات السنين الثلاث[٢٩] ؛ وصور هذه الأخيرة ، بعد أن أصبحت دوقة ديفونشير (الحسناء المرحة التى اشترت

بالقبلات أصوات الناخبين لفوكس فى حملته لانتخابات البرلمان) مع ابنتها ذات السنين الثلاث ، وهى جورجيانا أخرى أصبحت فيما بعد كونتيسة كارليل[٣٠] .

وأخيراً ، وربما أكثرهن جميعاً جاذبية ، الأطفال أنفسهم ، متحف كامل منهم ، وكلهم تقريباً رسمه متفرداً كروح لاتكرار لها ، وفهمه بتعاطف فى تساؤل الصبى وعدم اطمئنانه . ويعرف العالم رائعة رينولدز فى هذا القطاع ، وهى « عصر البراءة »[٣١] ، التى رسمها فى ١٧٨٨ ، فى آخر سنى إبصاره ؛ بيد أن السرعة التى بلغ بها تفهمه للطفولة حدساً يكاد يكون صوفياً يمكن رؤيتها فى لوحه بجل جمالها عن الوصف رسمها فى ١٧٥٨ للورد روبرت سبنسر وهو فى الحادية عشرة[٣٢] . وبعدها راح يرسم الأطفال فى كل عمر : فى سنتها الأولى الأميرة صوفيا ما تيلده ؛ وفى سنته الثانية الغلام وين مع حمله ؛ وفى الثالثة الآنسة باولز مع كلبها ؛ وفى الرابعة الغلام كريوى فى تقليد كامل لهنرى الثامن ؛ وفى نحو هذه السن « الفتاة باثعة الفراولة »[٣٣] ؛ وفى الخامسة ولدا برومبل ، وليم وجورج (الذى أصبح فيما بعد يلقب « بو برومبل ») ؛ وفى السادسة الأمير وليم فردريك ؛ وفى السابعة اللورد جورج كونواى ؛ وفى الثامنة الليدى كارولين هوارد ؛ وفى التاسعة فردريك ، ايرل كارليل ؛ وهكذا قدما إلى الشباب والزواج والإنجاب .

وقد اعترف رينولدز بإيثاره زبائنه من ذوى الألقاب ، « ان التدرج البطىء للأشياء بالطبع يجعل الأناقة والتهذيب آخر آثار الغنى والساطة »[٣٤] ولا قبل إلا للأغنياء بدفع الجنيهات الثلاثمائة التى يطلبها أجراً عن « لوحة كاملة الطول مع طفلين »[٣٥] . أيا كان الأمر ، فإنه كان قد وقع على منجم ذهب ، وما لبث دخله أن ارتفع إلى ١٦,٠٠٠ جنيه فى العام . وفى ١٧٦٠ اشترى بيتاً فى رقم ١٧ بميدان لستر ، وكان يومها أرقى أحياء لندن ، فأثثه تأثيثاً فاخراً ، وجمع له الصور من صنع قدامى الفنانين ، واتخذ مرسماً له قاعة فى سعة صالة الرقص . وكان للى مركبته الخاصة ، تجملها اللوحات المرسومة والعجلات المذهبة ، وطلب إلى أخته أن تركبها طائفة بالمدينة ، لأنه كان يعتقد أن مثل هذا الإعلان عن الثراء كفيل بأن يأتى بالمزيد[٣٦] .

وفى ١٧٦١ منح لقب الفروسية . وكان يلقى الترحيب فى كل مكان يحل به ضيفاً ، واستضاف هو نفسه أصحاب العبقرية والجمال والنبل ؛ وكان يلتقى على مائدته من رجال الأدب عدد يفوق ضيوف أى رجل آخر فى انجلتره(٣٧) . وقد أهداه جولد سمث قصيدته « القرية المهجررة » وأهداه بوزويل « حياة صموئيل جونسن » . ورينولدز هو الذى أسس فى ١٧٦٤ « النادى » ليتيح لجونسن منبراً من نظرائه .

ولا بد أنه أحب جونسن ، فقد رسم له صوراً كثيرة جداً . ورسم لنفسه أكثر . غير أنه لم يوهب وسامة الطلعة ، فقد كان وجهه شديد الحمرة به ندوب من جدرى أصابه فى طفولته ؛ وكانت ملامحه جافية ، وشفته العليا شوهتها كبوة فى مينورقة . وفى الثلاثين رسم نفسه وهو يظلل عينية ويحاول اختراق تيه من الضوء والظل ليلتقط الروح الكامنة وراء وجه(٣٨) . ثم صور نفسه فى الخمسين وهو فى رداء الدكتوراه ، لأن جامعة أكسفورد كانت قد منحته لتوها الدكتوراه فى القانون المدنى . وأبدع هذه السلسلة صورته المحفوظة فى قاعة الصور القومية ، والتى رسمها حوالى ١٧٧٥ ، وفيها يبدو وقد غدا وجهه أكثر تهذيباً ، ولكن شعره خطه الشيب ، ويده مضمومة إلى أذنة ، لأنه كان فى طريقه إلى الصمم .

وحين أسست أكاديمية الفنون الملكية فى ١٧٦٨ أنتخب رينولدز رئيساً لها بالإجماع . وظل خمسة عشر عاماً يفتتح موسمها بحديث إلى الطلاب . وكان بوزويل من الأصدقاء الذين جلسوا فى الصف الأمامى فى حديثه الأول (٢ يناير ١٧٦٩) . وقد أدهشت الكثيرين ممن استمعوا إلى هذه الأحاديث بلاغتها الأدبية ، وظن بعضهم أن بيرك أو جونسن كتبها له ، ولكن السر جوشوا كان قد تعلم الكثير من اتصالاته ، وأنشأ له أسلوباً وتفكيراً خاصين . وبالطابع شدد على أهمية الدرس بوصفه أكاديمياً ، واستنكر الفكرة التى تزعم أن العبقرية قد تغنى صاحبها عن التعلم وبذل الجهد الشاق ، وازدرى « شبح الإلهام هذا » ، وأصر على أن « الجهد هو الثمن الوحيد للشهرة الراسخة »(٤٠) . ثم انه « ينبغى اغتنام كل فرصة لاستنكار ذلك الرأى السوقى الباطل — وهو

أن القواعد اغلال تقيد العبقرية »[٤١] ويجب أن يمر التطور الطبيعى للفنان بمراحل ثلاث :

أولا : مرحلة الوصاية — تعلم القواعد ، والرسم ، والتلوين ، والتشكيل؛

ثانيا : دراسة كبار الفنانين الذين نالوا الاستحسان على طول الزمن ، وبطريق هذه الدراسات « تلتئم الآن أسباب الكمال المتناثرة بين مختلف الفنانين فى فكرة عامة واحدة تقضى إلى تعديل ذوق الطالب وتوسيع خياله ، والمرحلة الثالثة والأخيرة تحرر الطالب من الخضوع لأى سلطان إلا ما يرى بنفسه أن العقل يؤيده[٤٢] . وعندها فقط ينبغى له أن يجدد ويبدع ، « فإذا أحسن إرساء حكمه وإثراء ذاكرته ، استطاع أن يجرب قوة خياله دون أن يعروه خوف . والعقل الذى درب على هذا النحو يمكنه أن يشبع رغبته فى الحماسة المفرطة ويغامر باللعب على حدود الإغراب الشديد»[٤٣] .

وكان هوجارث قد رفض « قدامى الأساتذة » ولقبهم « الأساتذة السود »، وأشار بتصوير الطبيعة تصويراً واقعياً . أما رينولدز فذهب إلى أن هذه الخطوة ينبغى أن تكون مجود إعداد لفن أكثر مثالية . « ان الطبيعة نفسها يجب عدم الغلو فى نقلها . . ومطمح المصور الأصيل لابد أن يكون أوسع من هذا . فبدلا من محاولته الترويح عن البشر بالأحكام الدقيق لتقليداته ، عليه أن يحاول تحسينها بسمو أفكاره . . . وعليه أن يكافح لبلوغ الشهرة بأسره للخيال »[٤٤] . ان كل شىء فى الطبيعة ناقص قاصر عن ادراك الجمال ، وفى صميمه عيب أو نقص ما ، والفنان يتعلم أن يحذف هذه العيوب من ابداعاته ، وهو يجمع فى مثل أعلى واحد مزايا الكثير من الأشكال الناقصة ؛ « انه يصحح الطبيعة بذاتها ، وحالتها الناقصة بحالتها الأكثر كمالا . . وهذه الفكرة ، فكرة الحالة الكاملة للطبيعة ، التى يسميها الفنان « الجمال المثالى » هى المبدأ الرئيسى العظيم الذى تؤدى الأعمال العبقرية طبقاً له . ولكى يميز الفنان الناقص من الكامل ، والرفيع من الحسيس ، ولكى يدرب الخيال ويهذبه ويرفعه ، يجب أن يثرى نفسه بالأدب والفلسفة ، وبـ « حديث الرجال المثقفين والمبدعين»[٤٥] . وكذلك فعل رينولدز .

وفى ١٧٨٢ أصيب بالنقطة ، ثم شفى شفاء جزئياً من إصابته . وواصل التصوير سبع سنين أخرى . ثم غامت عينه اليسرى ، وسرعان ما فقدت البصر . وفى ١٧٨٩ بدأت اليمنى فى الضعف ، فوضع فرشاته ، وقد ملأه جزعاً وقنوطاً أن يضاف العمى الكامل تقريباً إلى نصف الصمم الذى ألحأه منذ سنته السابعة والعشرين إلى استعمال بوق للأذن . وفى ١٠ ديسمبر ١٧٩٠ ألقى آخر أحاديثه . وقد أعاد تأكيد إيمانه بالمبادىء الأكاديمية والمحافظة التى نادى بها فى أحاديثه الأقدم عهداً ، وجدد نصيحته بدرس الخط قبل اللون ، والمصورين القدامى قبل محاولة التجديد . ثم اختتم بالثناء الحار على ميكلانجلو :

« لو أتيح لى الآن أن أبدأ الحياة من جديد ، لاقتفيت خطى ذلك الفنان العظيم ، فلثم هدب ثوبه ، والتقاط الطفيف من مواطن كماله ، فيه فخر وامتياز كافيان لرجل طموح . . . ويخيل إلى ، فى شعور لايخلو من الغرور ، أن هذه الأحاديث تشهد بإعجابى بهذا الرجل الملهم حقاً ، وأود أن تكون آخر كلمة أفوه بها فى هذه الأكاديمية ومن هـــذا المكان ، هى اسم ميكلانجلو »(٤٦) .

وتوفى المصور الآسف فى ٢٣ فبراير ١٧٩٢ ، وشرف تسعة نبلاء بحمل رفاته إلى كتدرائية القديس بولس .

٥ — توماس جينزبرو

كان رينولدز رجل دنيا ، لايتردد فى تقديم فروض الاحترام التى يقتضيها قبوله فى المجتمع ، أما جينزبرو فكان ذا نزعة فردية حارة ، تسخطه التضحيات التى تطالب بها شخصيته وفنه ثمناً للنجاح . وكان أبواه من المنشقين على الكنيسة الرسمية ، وورث توماس عنهما استقلال الروح دون أن يرث التقوى . وتروى القصص عن هروبه من المدرسة فى مسقط رأسه صدبرى ليجوب أرجاء الريف راسماً رسوماً تخطيطية للشجر والسماء ، وللماشية ترعى فى الحقول أو تشرب عند بركة . فلما فرغ من رسم جميع الأشجار فى منطقته وهو بعد فى الرابعة عشرة ، حصل على إذن من أبيه

ليذهب إلى لندن ويدرس الفن . وهناك درس نساء المدينة ، كما نستنتج من نصيحته التى بذلها فى تاريخ لاحق لممثل شاب : « لا تسرح فى شوارع لندن ، متوهماً أنك تلتقط لمحات من « الطبيعة » على حساب بدنك . تلك كانت أول مدرسة لى ، وأنا عميق الخبرة بالنساء ، فاسمح لى إذن أن أحذرك »(٤٧) .

وفجأة ، وهو ما يزال فى التاسعة عشرة ، ألفى نفسه زوجاً لفتاة اسكتلندية فى السادسة عشرة تدعى ما رجريت بور . وتجمع أكثر الروايات على أنها كانت ابنة غير شرعية لأحد الأدواق ، ولكنها كانت تملك دخلاً قدره مائتا جنيه فى السنة(٤٨) . وفى ١٧٤٨ استقر بهما المقام فى ابسوتش . وهناك التحق بناد موسيقى لأنه كان مولعاً بالموسيقى ، وكان يعزف على عدة آلات — « انى أرسم لوحات الأشخاص لأكسب قوتى ، ولمشاهد الطبيعة لأننى أحبها ، وأعزف الموسيقى لأننى لا أملك منع نفسى من العزف»(٤٩) وقد وجد فى مصورى « اللاند سكيب» (المناظر الطبيعية) الهولنديين دعماً لولعه بالطبيعة . وكافه فليب تكنيس ، حاكم قلعة لاند جارد القريبة منه ، بأن يصور القلعة ، والتلال المجاورة لها ، وهاروتش ، ثم نصحه بأن يلتمس عملاء أغنى وأكثر فى مدينة بات .

فلما أن بلغها جينزبرو (١٧٥٩) بحث عن الموسيقيين لا المصورين ، وسرعان ما أدخل يوهان سبستيان باخ فى عداد أصدقائه . ذلك أنه كان يملك روح الموسيقى وحساسيته ، وتراه فى لوحاته يحول الموسيقى إلى دفء للون ورشاقة الخط . وكان فى بات بعض مجموعات الصور جيدة ، فاستطاع الآن أن يدرس لوحات الطبيعة التى رسمها كلود لوران وجسبار بوسان ، ولوحات الأشخاص التى رسمها فاندريك ، وأصبح الوريث وأسلوب فاندريك الانجليزى — لوحات أشخاص تضيف رهافة بالغة فى الفن إلى تفرد الشخصية وأناقة الملبس .

وفى بات أنتج بعضاً من أفضل فنه . وكان آل شريدان يسكنونها ، فرسم جينزبرو زوجة رتشرد الشابة الفاتنة(٥٠) ثم أفاض كل صنعته الآخذة فى النضج على لوحه « النبيلة مسز جراهام »(٥١) التى أتاح له رداؤها الأحمر

بثناياه وطياته أن يبرز أرق تدريجات اللون والظل . وحين عرضت هذه اللوحة فى الأكاديمية الملكية بلندن (١٧٧٧) خيل لكثير من المشاهدين أنها تبز أى لوحة رسمها رينولدز . وحوالى عام ١٧٧٠ أضفى جينزبرو البهاء على صورة غلام يدعى جوناثان بتال ، وهو ابن تاجر حديد ، فغيره إلى « الصبى الأزرق » — وهى لوجه دفع فيها متحف صور هنتنجتن ٥٠٠,٠٠٠ دولار . وكان رينولدز قد أعرب عن اقتناعه بأنه لايمكن رسم لوحة شخصية مقبولة باللون الأزرق ، وقبل غريمه الصاعد التحدى وانتصر ؛ وأصبح اللون الأزرق بعدها لوناً مفضلا فى التصوير الانجليزى .

ورغب كل وجوه باث الآن فى أن يصورهم جينزبرو . ولكنه ، كما قال لصديق ، « لقد مللت تصوير الأشخاص ، ولى رغبة شديدة فى أن آخذ كمانى وأنطلق إلى قرية جميلة ، حيث أستطيع رسم مشاهد الطبيعة وأستمتع بالبقية الباقية من عمرى فى هدوء ودعة »[٥٢] . ولكنه عوضاً عن هذا نزح إلى لندن (١٧٧٤) واستأجر مسكناً فاخراً فى شومبيرج هاوس ، بشارع بل مل ، ودفع فيه ٣٠٠ جنيه فى السنة ، فهو لايرضى بأن يتفوق عليه رينولدز فى مظهره . وتشاجر مع الأكاديمية على عرض صوره ، وظل أربع سنين (١٧٧٣ — ٧٧) رافضاً عرض لوحاته فيها ؛ وبعد عام ١٧٨٣ لم يتيسر مشاهدة لوحاته الجديدة إلا فى الافتتاح السنوى لمرسمه . وبدأ نقاد الفن حرباً غير كريمة من المقارنات بين رينولدز وجينزبرو . وكان رينولدز عموماً يفضل عليه ، ولكن الأسرة المالكة أثرت جينزبرو ، فصور أفرادها جميعاً . ولم يلبث نصف الانجليز الذين يجرى فى عروقهم الدم الأزرق أن تقاطروا على شومنرج هاوس طلباً للخلود القلق فى الصور . ورسم جينزبرو الآن شريدان ، وبيرك ، وجونسن ، وفرانكلن ، وبلاكستون ، وبت الثانى ، وكلايف . . . ولكى يوطد مكانته ، ويدفع إيجاره ، راض نفسه على الانقطاع لرسم الأشخاص .

وقد وجده زبائنه رجلا صعب الإرضاء . من ذلك أن أحد اللوردات غالى فى خيلائه بينما كان جالساً إلى جينزبرو ، فصرفه دون أن يرسمه ، وكانت ملامح جاريك كثيرة الحركة والتغير (فهذا كان نصف سر تفوقه ممثلا)

بحيث لم يستطع المصور أن يجد تعبيراً يطول فترة تكفى للكشف عن الرجل ، ولقى هذا العنت فى تصوير صموئيل فوت ، منافس جاريك . وصاح جينزبرو تباً لهما من وغدين ! إن لهما وجه كل إنسان إلا وجههما »(٥٣) ثم وجد صعوبة مختلفة فى تصوير السيدة سيدونز « لعن أنفك ياسيدتى ! أنه بلا نهاية »(٥٤) وكان يصفو مزاجه مع النساء ، فهو شديد الإحساس بجاذبيتهن الجنسية ، ولكنه تسامى بها إلى شعر من الألوان الناعمة والعيون الحالمة .

فلما أن فاض لديه المال بعد نفقات مسكنه الغالية رسم المناظر الطبيعية التى كان الطلب على لوحاتها قليلا . وكثيراً ما كان يضع زبائنه الجلوس . — أو الوقوف — ومن خلفهم منظر ريفى ، كما نرى فى لوحته « روبرت أندروز وزوجته » (التى بيعت بمبلغ ٣٦٤,٠٠٠ دولار فى مزاد عام ١٩٦٠). وإذ منعته زحمة العمل من الذهاب إلى الريف والرسم فى مواجهة الطبيعة الحية ، فقد جلب إلى مرسمه أصول الشجرة والحشائش البرية والأغصان والأزهار والحيوانات ، ثم نظمها فى لوحه (٥٥) — مع دمى ألبسها ثياباً لتبدو كأنها ناس ، ومن هذه الأشياء ؛ ومن ذكرياته ، ومن خياله ، رسم المناظر الطبيعية . وكان فيها نوع من الافتعال ، وشكلية وانتظام ندر أن يوجدا فى الطبيعة ، ومع ذلك فالنتيجة أوحت بجو من شذى الريف وسكينته ، وفى أخريات عمره رسم بعض « الصور الغريبة » التى لم يدع أنه توخى فيها الواقعية ، ولكنه أطاق العنان لمزاجه الرومانتيكى ؛ وفى إحداها ، وهى « فتاة الكوخ ومعها كلب وابريق « كل العاطفة التى تجيش بها لوحة جروز « الإبريق المكسور » وكلتا الصورتين رسمت فى ١٧٨٥ (٥٦) .

ولا يستطيع أن يقدر جينزبرو حق قدره غير فنان . كان فى أيامه يعد أقل قدراً من رينولدز ، ويعاب على رسمه أنه مهمل ، وعلى تكويناته أنها تفتقد الوحدة ، وعلى أشكاله أنها غير صحيحة الأوضاع ؛ ولكن رينولدز نفسه أثنى على التألق الخفيف الذى اتسم به تلوين مزاحمه . وكان يصاحب فن جينزبرو شعر وموسيقى لم يستطع مصور الأشخاص العظيم فهمه فى حرارة ، لقد كان لرينولدز عقل أكثر ذكورة ، وتفوق على منافسه فى رسم الرجال ؛ أما جينزبرو فكان روحاً أكثر رومانسية ، آثر تصوير النساء

والصبيان . لقد فاته التدريب الكلاسيكى الذى تلقاه رينولدز فى إيطاليا ، وافتقد الاتصالات المنبهة التى أثرت عقل رينولدز وفنه . وكان جينزبرو مقلاً فى قراءته ، قليل الاهتمامات الفكرية ، يتجنب جماعة الأدباء والظرفاء الذين التفوا حول جونسن . وكان سمح النفس ولكنه متهور نزاع إلى الانتقاد ، وما كان يمكن قط أن يستمع فى صبر لمحاضرات رينولدز أو أحكام جونسن . ومع ذلك احتفظ بصداقة شريدان إلى النهاية .

فلما تقدم به العمر ران عليه الغم والاكتئاب ، فالنفس الرومانسية تقف عاجزة أمام الموت ما لم تكن متدينة . وفى كثير من لوحات الطبيعة التى رسمها جينزبرو تقحم شجرة ميتة نفسها « تذكرة موت » وسط الورق الغض والعشب الوافر . ولعله ظن أن السرطان يحترمه ، وأحسن بمرارة متزايدة لفكرة عذاب يستطيل إلى هذا الحد . وقبل أن يموت بأيام كتب رسالة مصالحة إلى رينولدز وطلب إلى أكبر الرجلين أن يزوره . وجاء رينولدز ، وتبادل الرجلان الحديث الودى وهما اللذان لم يتشاجرا بشخصيهما بقدر ما كانا موضوع نزاعات بين رجال أقل منهم شأنا . وحين افترقا قال جينزبرو « وداعاً حتى نلتقى فى الآخرة ، وفى صحبتنا فانديك »[٥٧] ومات فى ٢ أغسطس ١٧٨٨ بالغا الحادية والستين .

وشارك رينولدز شريدان فى حمل جثمانه إلى فناء كنيسة كيو . وبعد أربعة أشهر أثنى عليه رينولدز فى حديثه الرابع عشر ثناء منصفاً . وقد ذكر بصراحة العيوب كما ذكر الحسنات فى فن جينزبرو ، ولكنه أضاف « لو أتيح لهذه الأمة أن تنجب من العباقرة عدداً يكفى لإكسابنا الامتياز الرفيع ، امتياز « مدرسة انجليزية » ، فإن اسم جينزبرو سينحدر إلى الأجيال القادمة ، فى تاريخ الفن ، فناناً من الرعيل الأول فى تلك المدرسة الصاعدة »[٥٨]

أما جورج رومنى فقد كافح ليبلغ شعبية رينولدز وجينزبرو ، ولكن عيوب تعليمه وصحته وخلقه ألزمته مكاناً أكثر تواضعاً . وقد افتقد التعليم المدرسى بعد الثانية عشرة ، فاشتغل فى ورشة نجارة أبيه بلانكاشير حتى بلغ التاسعة عشرة . وقد أكسبته رسومه المال الذى تلقى به دروساً فى التصوير

من فنان متبطل فى بلدته . فلما بلغ الثانية والعشرين مرض مرضاً خطيراً ، فلما شفى تزوج ممرضته ، ولكنه لم يلبث أن ضاق بها ، فهجرها بحثاً عن رزقه ، ولم يرها سوى مرتين فى الأعوام السبعة واللاثين التالية ، ولكنه كان يرسل إليها بعض مكاسبه . وقد كسب ما يكفى لزيارة باريس وروما ، حيث تأثر بالنزعة الكلاسيكية الحديثة . فلما عاد إلى لندن اجتذب رعاية رعاة الفن بقدرته على الباس زبائنه فى رشاقة أو وقار. وكان منهم إيما ليون ، التى أصبحت فيما بعد الليدى هاملتن ، وقد بلغ من افتتان رومنى بجمالها انه صورها فى صورة إلاهة ، وكاساندرا ، وسورسى ، والمجدلية ، وجان دارك ، والقديسة . وفى ١٧٨٢ رسم صورة لليدى سندرلاند ، نقد عنها ١٨ جنيهاً ؛ وقد بيعت مؤخراً بمبلغ ٢٥٠,٠٠٠ دولار . وفى ١٧٩٩ عاد إلى زوجته محطم الجسد والعقل ، فعاودت تمريضه كما فعلت قبل أربع وأربعين سنة . وطال به الأجل ثلاثة أعوام من الشلل ، ثم مات فى ١٨٠٢ . وبفضله وبفضل رينولدز وجينزبرو انطلقت انجلتره الآن ، فى نصف القرن الذى نحن بصدده ، فى التصوير كما انطلقت فى السياسة والأدب ، فى تيار الحضارة الأوربية المتدفق .

* * *